أم إبراهيم
مارية القبطية

obeikandl.com

obeikandl.com

أم إبراهيم... مارية القبطية[1]

مارية القبطية فتاة مصرية، من قرية يقال لها: حفن، في ضاحية يقال لها: أنصنا الواقعة علىٰ الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين.

ولدت مارية لأب قبطي يقال له: شمعون، ولأم مسيحية رومية.

عاشت طفولتها في هذه القرية هي وأختها سيرين، ثم انتقلتا إلىٰ قصر المقوقس عظيم القبط بالإسكندرية.

والمقوقس كان واليًا من قِبل ملك الروم، وهم قوم يدينون بالمسيحية، ولديهم علم ببعثة محمد ﷺ؛ فهو مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم من خلال هذين الكتابين؛ فأوصافه كلها مذكورة لا يخفىٰ عليهم منها شيء.

وكان أهل مصر يسمعون من الأحبار والرهبان أن هناك نبيًا بمكة قد حانت بعثته.

وكانت مارية بنت شمعون، وأختها سيرين يسمعان بعض ما يقال عن هذا النبي عليه الصلاة والسلام، ولكنهما لا يلقيان بالًا إلىٰ ما يسمعان عنه؛ لشغلهما بخدمة القصر ومن فيه.

وقد كان النبي ﷺ بعد فتح خيبر يرسل رسله إلىٰ البلاد الواقعة في شبه الجزيرة العربية وغيرها، ومعهم كتب منه يدعوهم فيها إلىٰ الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

وكان ممن أرسل إليهم المقوقس والي مصر؛ فقد بعث إليه حاطب بن أبي بلتعة، فلما دخل عليه أدىٰ إليه كتاب النبي ﷺ، وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلىٰ المقوقس عظيم القبط سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ..

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط..

---

(1) كتاب مؤمنات لهن عند الله شأن محمد بكر اسماعيل.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:64].

فلما قرأه المقوقس طواه في عناية وتوقير، ووضعه في حق من عاج، ودفعه إلىٰ إحدىٰ جواريه لتحفظه.

ثم التفت إلىٰ حاطب يسأله أن يحدثه عن النبي ﷺ وأن يصفه له، فلما فعل، فكر المقوقس مليًا، ثم قال لحاطب: قد كنت أعلم أن نبيًا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وهناك كان مخرج الأنبياء، فأراه قد خرج من أرض العرب، ولكن القبط لا تطاوعني؛ وضنَّ بملكه أن يفارقه، ثم دعا بكاتبه فأملىٰ عليه رده وفيه:

أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وكسوة، ومطية لتركبها، والسلام عليك.

ثم دفع هذا الكتاب إلىٰ حاطب، واعتذر إليه بما يعلم من تمسك القبط بدينهم، وأوصاه بأن يكتم ما دار بينهما، فلا يسمع القبط منه حرفًا واحدًا.

وانطلق حاطب عائدًا إلىٰ النبي ومعه مارية وأختها سيرين، وعبد خصي، وألف مثقال ذهبًا، وعشرون ثوبًا لينًا من نسيج مصر، وبغلة شهباء «**دلدل**» وجانب من عسل بنها، وبعض العود والند والمسك.

وفي الطريق إلىٰ المدينة عرض حاطب علىٰ مارية وأختها الإسلام بعد أن حدثهما عنه طويلاً، وأهلما من نفسه مثلاً للمسلم الكريم الحليم الودود الرشيد، الذي يصون الحرمات، ويغضّ بصره عن المحرمات، ويحفظ الأمانة ويصون الأعراض.

والمرأة لا يخفىٰ عليها أطباع الرجال وأوصاف الرجولة فيهم؛ فعرفته رجلاً قد زانه طبعه وتطبعه بالإسلام؛ فشعرت هي وأختها أنهما قادمتان إلىٰ أرض طيبة، وإلىٰ أهل بيت طيب، يزينه صاحبه بخلق فاضل وكمال وافر؛ فاطمأنت هي وأختها لهذا المستقبل الذي ينتظرهما بالمدينة المنورة، واشتاقت كل منهما إلىٰ العيش الهنيء الخالي من ذل العبودية، وإلىٰ الحياة الهانئة الوديعة البعيدة عن صخب القصور وظلم الحكام وأتباعهم.

وأخذ حاطب بن أبي بلتعة يعلمهما أحكام الطهارة والصلاة وغيرها مما ينبغىٰ علىٰ من أسلم أن يتعلمه؛ حتىٰ انتهىٰ بهما إلىٰ المدينة فدخلها في سنة سبع من الهجرة، وقد عاد النبي ﷺ من الحديبية بعد أن عقد الهدنة مع قريش؛ فسلّم إليه حاطب الأمانة؛ فتقبلها بقبول حسن، لكن ساءه أن المقوقس لم يسلم؛ فسلّم أمره إلىٰ الله تعالىٰ، ووكله إلىٰ قدره، وما عليه إلا البلاغ.

فأمسك مارية لنفسه، ووهب أختها لحسان بن ثابت.

وأنزل مارية منزلًا لحارثة بن النعمان الأنصاري قرب المسجد، وضرب عليها الحجاب كأمهات المؤمنين.

وبدأت مارية رضي الله عنها تمارس حياتها الجديدة مع خير خلق الله ﷺ وفي صحبة أمهات المؤمنين، وفي وسط هذا المجتمع المسلم التقي النقي المتآخي، القائم في جميع شئونه علىٰ العدل والفضل والتعاون البنّاء علىٰ البر والتقوىٰ؛ فسعدت بهذه الحياة أيما سعادة؛ وأدركت الفرق الشاسع بين هذا المجتمع والمجتمع الذي كانت تعيش فيه من قبل.

إنها كانت تحيا حياة بلا دين وبلا هدف، كانت مجرد جارية تعيش في قصر يعج بالجواري، ليس لها وضع تعتز به، ولا عمل تستريح له، ولا مكان تستقر فيه علىٰ النحو الذي ترضاه.

كانت تعيش في نظام يقوم علىٰ التحكم والتسلط والغطرسة، فجاءت إلىٰ بيت كريم وسط قوم كرام في كنف نبي مرسل، وفي ظل دين قيم؛ يسوي بين الناس جميعًا، ويعطي كل ذي حق حقه، في جو يسوده الحب والوفاء، وفي بيت بسيط يخلو من المظاهر الخداعة التي لا تستقر علىٰ حال.

لقد كانت رضي الله عنها تتلقىٰ العلم من رسول الله ﷺ تزداد به فضلاً ونبلاً ، وتصحح به ما كانت قد عرفته من الكتب الدينية التي ألّفها أحبار اليهود وعلماء بني إسرائيل؛ فقد كانت في شك من بعض ما جاء فيها؛ لعدم مطابقتها للعقل والواقع.

وكان النبي ﷺ لا يضنّ عليها بشيء سألته عنه، أو استفته في حكمه.

وقد أعانها عقلها الرشيد وذكاؤها الفذ علىٰ تحصيل ما قد سمعت، وإدراك ما قد رأت؛ حتىٰ غبطتها نساء الأنصار.

أما أزواج النبي ﷺ فكنّ لها كالأخوات لا كالضرائر؛ لأنها ليست مثلهن في الزوجية؛ فهىٰ سرية يتمتع بها الرسول ﷺ بملك اليمين، ولم يكن يغرن منها كغيرة بعضهن من بعض؛ فوقاها الله شرّ ما تلقاه الضرة من ضرتها، وكانت بذلك أسعد.

وقد عرفت مارية رضي الله عنها أن لها شبهًا بهاجر من وجوه كثيرة.

فهاجر مصرية وهي مصرية، وكل منهما أهديت لنبي عظيم مرسل، وكل منهما ذات جمال بارع، وعقل راجح، وخلق فاضل، ولكن كان لهاجر غلام حليم اسمه إسماعيل، سعدت به وأسعدت به زوجها الذي بلغ الكبر، فهل يرزقها الله غلامًا حليمًا مثلما رزق هاجر؛ لتسعد به زوجها الذي بلغ الستين من عمره.

إنها أمنية غالية سألت ربها أن يحققها لها ففعل؛ فحملت به فانتبذت به مكانًا قصيًا وهو مكان أقصىٰ المدينة.

وسرعان ما سرت البشرىٰ في أنحاء المدينة؛ فتلقاها المسلمون بالبهجة والسرور.

وأخذ النبي ﷺ يرعاها رعاية خاصة، وأختها تقضي لها حوائجها وتسهر علىٰ خدمتها؛ حتىٰ وضعته في ليلة من ليالي شهر ذي الحجة سنة ثمانٍ من الهجرة، وقد سمَّاه الرسول ﷺ إبراهيم؛ تيمنًا بجد الأنبياء عليه السلام.

وتنافست نساء الأنصار علىٰ إرضاعه؛ فاختار له النبي ﷺ مرضعًا تكنىٰ بأم سيف، وراح يرقب نموّه يومًا بعد يوم، ويجد فيه أنسه ومسرته، ويودّ لو شاركته دنياه كلها في هذا الأنس.

وحمله يومًا بين ذراعيه إلىٰ عائشة؛ فكادت تبكي حين رأته من شدة غيرتها؛ لأنها كانت تودّ أن يكون له منها ولد، ولكنها تماسكت وكفكفت من دموعها، ورضيت بقضاء الله وقدره، وهي التي كانت تقول: لله درّ التقوىٰ ما تركت لذي غيظ شفاء!!

والغيرة جبلّة في الإنسان ذكرًا كان أو أنثىٰ، وغيرة الأنثىٰ في مثل هذه الأحوال أشد، لكن المؤمن لا يسمح لغيرته أن تجاوز حدّها، فهىٰ -رضي الله عنها- قد غارت من مارية حين حباها الله ولدًا، فما لبثت أن ملكتها؛ إيمانًا واحتسابًا وحرصًا علىٰ إرضاء النبي ﷺ، وتقديرًا لمشاعره الجياشة لهذا الولد الذي جاءه بعد طول انتظار.

وحكت عائشة عن نفسها ما وقع في قلبها من الغيرة حين ملك النبي ﷺ مارية قالت: «**ما غرت علىٰ امرأة إلا دون ما غرت علىٰ مارية؛ وذلك أنها كانت جميلة**

جعدة؛ فأعجب بها رسول الله ﷺ، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت حارثة بن النعمان الأنصاريّ؛ فكانت جارتنا؛ فكان عامة الليل والنهار عندها، فجزعت فحولها إلىٰ العالىٰ، وكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا».

وزادت في رواية: «**ثم رزقها الله الولد وحرمناه منه**».

وسعد الأبوان بهذا الغلام الميمون ردَحًا من الزمن لم يطل، وتلك مشيئة الله عزوجل؛ فقد مرض الغلام بعد سبعة عشر شهرًا من ولادته، واشتدّ مرضه؛ فالتفت حوله أمه وأختها تمرضانه وأنفاسه تنقطع، فجاء رسول الله ﷺ وهو يجود بأنفاسه؛ فنظر إليه نظرة الوداع وعيناه تذرفان؛ فتعجب عبد الرحمن بن عوف من بكائه، فقال: أأنت تبكي يا رسول الله؟! أي: كيف بنا نحن؛ فقال «**يا عبد الرحمن، إنها رحمة**».

فلما مات الغلام بكىٰ أشد من بكائه الأول، وقال: «**إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**».

وقد كانت وفاته في العاشر من شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة علىٰ الراجح، وانحنىٰ النبي ﷺ علىٰ جثمان ولده يقبله، وهو يقول: «**يا إبراهيم، لو لا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنّا عليك حزنًا هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون**».

وأقبل الفضل بن العباس رضي الله عنه؛ فغسَّل الصغير الميت، والرسول ﷺ جالس يرنو إليه في حزن.

وحمل من بيت ظئره علىٰ سرير صغير، وصلىٰ عليه أبوه عليه الصلاة والسلام وكبّر أربعًا، ثم سار وراءه إلىٰ البقيع، وأضجعه بيده في قبره، ثم سوّىٰ عليه التراب ونداه بالماء.

وآب المشيعون واجمين، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس، فقال قائلون: «إنها انكسفت لموت إبراهيم».

وبلغت الكلمة مسمع النبي ﷺ فصلىٰ بالناس صلاة الكسوف، وخطبهم، فقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا، وصلوا وتصدقوا**»[1].

---

(1) البخاري في صحيحه (997)، باب الصدقة في الكسوف، ومسلم (901)، باب صلاة الكسوف، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وتجمّل النبي ﷺ بالصبر والجلد، وعزّىٰ نفسه عنه بانتظار ساعة اللقاء وهو يشعر أنها قد اقتربت أو حان أوانها.

وأما مارية فقد اعتكفت في بيتها تطوي حزنها في قلبها، وتتحلىٰ بالصبر والجلد؛ أسوة بزوجها الحبيب، ولم تخرج من بيتها إلا لزيارة وليدها في قبره.

وكان النبي ﷺ يتردد عليها كثيرًا ويواسيها، ويذكرها بأن وليدها في الجنة.

روىٰ مسلم في صحيحه أنه ﷺ قال لما توفي إبراهيم: «**إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة**».

أي: مات وهو في ثدي مرضعته لم يكتمل رضاعه، فكأني بي أراه في الجنة ترضعه مرضعتان من الحور العين؛ إتمامًا للعامين اللذين جعلهما الله حدًا لإتمام الرضاع.

فآمنْ بما قاله الرسول ﷺ، ولا تسأل لماذا وكيف؛ فذلك علمه عند الله، وهو من الغيب الذي يجب علينا الإيمان به دون أن نسأل عن كيفيته وحكمته وما إلىٰ ذلك مما يحلو للعقل أن يقحم نفسه فيه.

وظل النبي ﷺ يذكر إبراهيم الفينة بعد الفينة؛ حتىٰ لقي ربه عزوجل بعد عام من وفاته؛ فقد مات إبراهيم في اليوم العاشر من ربيع الأول سنة عشر من الهجرة - كما ذكرنا - ومات النبي ﷺ في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة.

وترك وراءه مارية تعاني ما تعاني من الوحدة والعزلة حتىٰ لقيت ربها بعده بخمس سنين.

ولما ماتت رضي الله عنها جمع لها عمر بن الخطاب من المسلمين جموعًا كثيرة للصلاة عليها وتشييع جنازتها، وقد صلىٰ عليها ودفنها بالبقيع.

وهكذا تطوىٰ صفحة مارية المصرية علىٰ ذكريات طيبة، وعاها التاريخ وسجلها في سجل الخالدين؛ فهي امرأة مصرية، ذكية النفس، سليمة القلب، رقيقة المشاعر، لينة الجانب، تألف الناس ويألفونها، شأنها في ذلك شأن أهل مصر الكرام.

كان إيمانها بالله فطرة تخلو من الشبهات، وكانت أخلاقها سجية فيها، زادها الإسلام جلالًا وجمالًا؛ فهىٰ جميلة المظهر والمخبر، لم يثبت عنها أنها أساءت لأحد عرفها وعرفته.

وحسبها شرفًا أنها كانت في كنف رسول الله ﷺ، تمتعت بقربه وحبه، وانضمت لحرمه، وكانت أمًّا لولده، أعطته من حبها مثل ما أعطاها، ووفت بعهدها معه كأعظم ما يكون الوفاء، فلم يجد منها إلا ما يسرّه.

بل إنها رضي الله عنها قد كانت مثلاً صادقًا لأهل مصر في حلمهم وكرمهم، ونبل أخلاقهم وحسن معاشرتهم؛ فلقد أحبهم الرسول ﷺ لحب جده إبراهيم لهم؛ إذ كانت هاجر منهم، وأحبها لأنها أختها في الإسلام، وأختها في الوطن.

ولهذا أوصىٰ النبي ﷺ بأهل مصر خيرًا حين بشّرهم بفتحها.

روىٰ مسلم في صحيحه في كتاب «**الفضائل**» عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم ستفتحون مصر - وهي أرض يسمىٰ فيها القيراط - فإذا فتحتموها فأحسنوا إلىٰ أهلها؛ فإن لهم ذمة ورحمًا**». أو قال: «**ذمة وصهرًا، فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة، فاخرج منها قال: فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لبنة، فخرجت منها**»[1].

والمراد بالذمة: الحق والحرمة، والرحم: هو الصلة القريبة من جهة الأم أو من جهة الأب أيضًا، والصهر: القرابة من جهة الأم، والنسب: القرابة من جهة الأب.

والنسب: من جهة هاجر أم إسماعيل عليها السلام، جد العرب العدنانية.

والصهر: من جهة مارية القبطية أم إبراهيم بن محمد عليه الصلاة والسلام.

وقد وعىٰ المسلمون هذا الدرس، وحفظوا هذه الوصية وسجلوها في كتبهم وسجلاتهم التاريخية.

ولما فتحت مصر سنة عشرين في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر عمرو بن العاص هذه الوصية بنصها في مفاوضات الصلح بينه وبين مندوبي المقوقس والي مصر من قبل الروم، فقال فيما قال: «لقد أعلمنا نبينا ﷺ أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم؛ حفظًا لرحمنا فيكم، وإن لكم إن أجبتمونا ذمة إلىٰ ذمة.

ومما عهد إلينا أمير المؤمنين: استوصوا بالقبطيين خيرًا؛ فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيرًا؛ لأن لهم رحمًا وصهرًا.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (2543)، باب وصية النبي ﷺ، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

ويقال: إن عبادة بن الصامت الأنصاريٰ ﷺ- وكان ممن شهد فتح مصر - قد بحث عن بلدة حفن من كورة أنصنا، ثم سأل عن موضع مارية فيها؛ فبنىٰ به مسجدًا.

وقد وضع معاوية بن أبي سفيان ﷺ الجزية عن أهلها؛ إكرامًا لإبراهيم بن رسول الله ﷺ من مارية لما كلمه الحسن بن علي رضي الله عنهما فيهم.

رضيٰ الله عن مارية بنت شمعون وأختها سيرين، وعلىٰ كل من كان علىٰ الهدىٰ من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ والحمدلله رب العالمين.

خواطر وعبر:

1- يتضح من قصة مارية رضي الله عنها لين قلوب المصريين، وسرعة استجابتهم لداعي الإيمان.

2- وأما من لم يسلم بعد الفتح من الأقباط فقد ظلت علاقته بالمسلمين علاقة طيبة، فالتآلف بين المصريين جميعًا له جذور تاريخية عميقة بسبب طبيعة اللين والمودة ونبذ العنف عند المصريين.

3- رعاية النبي ﷺ لمارية وإكرامه لها إكرامًا لأهل مصر جميعهم.

4- تظهر شخصية المرأة المصرية الأصيلة في أمّنا مارية رضي الله عنها، حيث إنها كانت إلفًا ألوف، تكيفت مع جو المدينة وتآلفت مع أهلها، وسار بينها وبين أهلها روح الإخاء والعشرة.

5- كما أن المرأة المصرية تتميز بقوة الحنان والعاطفة الفياضة علىٰ الأبناء، وكذلك الصبر والجلَد عند فقد أي منهم.

6- وجه التشابه الكبير بين هاجر المصرية ومارية القبطية يوحي بوحدة الأمة وارتباطها جيلاً بعد جيل، وإن اختلفت البقاع فالدين هو الرباط المتين الذي يربط الأجيال ويربط الأمصار علىٰ السواء.

* * *